مجلة كليّة

الدعوة الإسلامية

مجلّة إسلاميّة - ثقافيّة - جامعة - محكمة

العدد التاسع

1992 م.

من تراث الأندلس

روضة المحاسن وعمدة المحاسن

للجزار السرقسطي

دراسة وتحقيق الدكتور منجد مصطفى فهمي

عرض الأستاذ محمد القاضي - طنجة - المغرب

مَـدخـــل:

استأثرت الأنـدلس باهتمـام كثير من البـاحثين والدارسين في المشـرق والمغرب، فقد انكبوا على دراسة تاريخ هذه المنطقة في حقبتها الإسلامية الزاهرة ومدى تأثيرها على النهضة الأوروبية. فقد كانت إسبانيا أولى الدول الأوروبية التي ربطت جسرها الحضاري والثقافي مع العالم الإسلامي، وذلك بفضل الاتصال المباشر الذي عرفته شبه الجزيرة الايبيرية أيام الوجود العربي لمدة ثمانية قرون كانت فيها اللغة العربية لغة علم وحضارة انطلاقاً من السلطان السياسي المستقل الذي مَهَّد لهذا السلطان الحضاري الشامل، وقد عبر عن ذلك باعتزاز المستعرب الإسباني بيدرو مارتينث مونتابيث حيث قال: «إن إسبانيا ما كان لها أن تدخل التاريخ الحضاري لولا القرون الثمانية التي عاشتها في ظل الإسلام وحضارته، وكانت بذلك باعثة النور والثقافة إلى الأقطار الأوروبية المجاورة المتخبطة آنذاك

في ظلمات الجهل والأمية والتخلف»[1].

شكل التراث الأندلسي منبعاً فكرياً وثقافياً مهماً وخصباً للكثير من الدارسين والباحثين والمحققين في العالم العربي بصفة خاصة فانكبّوا على دراسته وتحقيقه، فنفضوا عنه غبار النسيان والإهمال في مكتبات أوروبا والعالم العربي، وبذلوا من أجل ذلك جهوداً جبارة ومشكورة يعترف لهم بها كل مهتم ومتخصص بهذا التراث العربي الإسلامي في كل مكان: أمثال الدكتور حسين مؤنس والدكتور الطاهر أحمد مكي والدكتور مختار العبادي والدكتور إحسان عباس والدكتور محمد بن شريفة والدكتور أمين توفيق الطيبي، وبعض المستعربين الإسبان كآسين بالاثيوس وفرانسيسكو كوديرا وخوليان ريبيرا وغارسيا غومبيث وآنخل بالينثيا وغيرهم ممن ينهجون نهجهم اليوم في كل مكان، وهم كثيرون أذكر منهم الدكتور منجد مصطفى بهجت الأستاذ بكلية الآداب جامعة الموصل بالجمهورية العراقية الذي قام أخيراً - وضمن اهتمامه بهذا الميدان - بتحقيق ودراسة ديوان «روضة المحاسن وعمدة المحاسن» لأبي بكر يحيى بن محمد المعروف «بالجزار السرقسطي» وفصول من كتابه «بادرة العصر وفائدة المصر» صنعة أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن مطروح السرقسطي. وقد صدر الكتاب عن المجمع العلمي العراقي سنة 1988 م.

ديوان روضة المحاسن وعمدة المحاسن

اعتمد الدكتور بهجت في تحقيقه للديوان على نسخة فريدة في العالم، توجد بالخزانة العامة بالرباط وتحمل رقم 1/2979 ك، كتبت بخط مغربي مشكول. ويرى المحقق أن قيمة المخطوط تكمن في الصورة التي وصل إلينا فيها حيث جاءت الأبيات مشكولة قليلة التصحيف والتحريف، وتضمنت تعليقات للشارح مفيدة في هوامش الكتاب، ولكن مما يؤسف له أن الديوان المخطوط غير كامل، إلا أن النقص فيه قليل، ومما يؤكد نقص الديوان أن صانعه ابن مطروح يشير معتذراً إلى أنه أثبت أشعاراً لابن الجزار في المجون والخمريات ليطلع على ما له من باع في الفصاحة والبلاغة، ولكن الديوان الذي بين أيدينا لا يشتمل إلا على نزر

(1) انظر كتاب: مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية الجزء الثاني، ص: 277.

يسير في الموضوعين السابقين، إضافة إلى ذلك فقد وقف المحقق على قصائد أخرى للشاعر في المصادر الأندلسية وغيرها فثبت له أن عدد هذه القصائد الناقصة من الديوان هي خمسة عشر بيتاً من قصيدته البائية التي مطلعها:

تعيب عليَّ مـألـوف القصـابـة ومن لم يـدر قـدر الشيء عـابـه

ويُستنتج من هذا أن ديوان الشاعر ظل قليل التداول بين أيدي الناس محجوباً عن الأدباء والنقاد الأندلسيين والمشارقة ولذلك لم ترد فيها أشعار ديوانه، وما نقلته المصادر ـ مما لم يرد في الديوان ـ يبلغ حوالي خمسين بيتاً فقط تفرقت على ستة مصادر ألحقها المحقق في مستدرك الديوان استكمالاً له.

ويشتمل الديوان على اثنتين وخمسين قصيدة اجتمع فيها سبعمائة وخمسة وسبعون بيتاً ومقدمة عن الشعر وقيمته عند العرب والإعجاب بالشاعر. وتكمن أهمية المخطوط كذلك أنه اشتمل على فصول من كتاب للشاعر مفقود سماه «بادرة العصر وفائدة المصر» ويؤلف ثلثي المخطوط، ولم يقف المحقق على ذكره في كتب فهارس المخطوطات، كما لم ترد الإشارة إليه في المصادر الأندلسية، وهو عبارة عن رسالة أجراها الجزار السرقسطي مجرى رسالة السيف والقلم ذكر فيها مثالب الفرَّائين وضمنها كثيراً من أشعاره ومناظراته التي جرت بينه وبين أبي الحسن علي بن عبد الرحمن البرجسي وكان فرَّاءً يتجر في الفراء، ولغوياً وأديباً وراوية للحديث توفي بوادي آش سنة 535 هـ.

والرسالة ثمينة في مضمونها وأسلوبها وذلك من خلال ما جاء فيها من قيم حضارية واجتماعية، في الإشارة إلى المهن الشائعة آنذاك، وطرق البيع والشراء والأساليب المحرمة منها. (ص 16 إلى 22).

متى جمع ابن مطروح ديوان الشاعر؟ يرى المحقق أنه ليست هناك إشارة واضحة إلى ذلك، وفي الديوان دلالة واضحة على أن الجمع حصل بعد وفاة الجزار، وذلك من عبارات الترحم التي يعطفها على اسمه من قوله: «رحمه الله» و«عفا الله عنه»، ولكن وفاة الجزار ذاتها مجهولة[2].

(2) انظر الدراسة التي خصصها المحقق للديوان، ص: 11.

ويعتقد أن ابن مطروح جمع الديوان بعد سنة 570 هـ، وهو أديب ناقد. له ذوقه في الانتقاء، ومذهبه في جمع الديوان يقوم على أساس اختيار محاسن أشعاره في البلاغة والفصاحة. ولم يُبَال لموضوعات الشعر، أن يقع تحت طائلة إيراد أشعار خمرية ماجنة، لأنه يذهب في ذلك مذهب الحساكي، دون أن تكون لديه رغبة في تلك الموصوفات من شعره؛ ويُظهر إعجابه في أكثر من موضع بأشعار الشاعر فهو يرى أنه «لو أنشد الصم لشق أسماعها، وفتّق، ولو تناولته البكم لأجرى لسانها بالتكلم به وأنطق، ولو افتخرت به الرواة لكفاها فخراً، أو سمعته الخنساء لأنساها صخراً...»[3].

وعلى العموم فإن لابن مطروح فضلاً كبيراً في جمع أشعار الجزار السرقسطي وتهذيبها من خطأ الرواية حتى وصلت إلينا اليوم.

من هو الجزار السرقسطي؟

لا يعرف شيء عن نشأته وأسرته ولا تاريخ ولادته ووفاته يكاد أن يكون مجهولاً لولا أشعاره التي جمعها ابن مطروح، وقد جعله ابن سعيد في رايات المبرزين[4] من شعراء المائة الخامسة للهجرة. وهو تارة يلقب بالجزار وأخرى بابن الجزار والراجح أن يكون اللقب له لا لأبيه لما صح من أنه كان يمتهن الجزارة فانتسب لها، وله قصيدة طويلة في الموضوع يجيب فيها الوزير الكاتب أبا الفضل بن حسداي الإسرائيلي الذي دخل قصر سرقسطة مع الجزارين في بعض أحوالهم فاعترضه بهذا البيت:

تركت الشعر من قلة الإصابه وعدت إلى التحرف بالقصابه

فرد عليه قائلاً:

تعيب علي مألوف القصابه ومن لم يدر قدر الشيء عابه
ولو أحكمت منها بعض فن لما استبدلت منها بالحجابه

(3) مقدمة الديوان، 1/ ب.

(4) رايات المبرزين، ابن سعيد، ص: 123.

لعمـرك لـو نـظرت إليَّ فيهـا وحـولي من بني كلب عصابـه
لهـالـك مـا رأيت وقلت هـذا هـزبـر صيـر الأوضـام غـابـه
ولـو تـدري بهـا كلفي ووجـدي علمت علام تحتمل الصبـابه[5]؟

وهي قصيدة طويلة يصل عدد أبياتها حسب الديوان 61 بيتاً. كان أبوه فلاحاً مغموراً فقير الحال، فلم يحظ بعيشة كريمة كما لم يدرك آماله بالشعر، وهو خير من نستعين به على حياته وخلاله، تعكس لنا حدة مزاج وغليان طبع فقد أنف الخنا وترفّع عن الذل والهوان، وكان من أجلهما يغضب للحق وينتصر لنفسه. بحجة قوية وبرهان ناصع، لا سيما إذا كان القصد انتقاص شأنه والتجريح في علمه. كانت ظروف عيشه صعبة، ساخطاً لحاله حسب ما يظهر في هذه الأبيات:

مـا بـال دنيـاي الـدنيـة لم تقم أودي أكـلُّ مـفـوّه مـحـروم؟
لا تجـزعي يا نفس إن خـطب غدا فـالـحـر يـعـثـر تـارة ويـقـوم
فـكـذا الـزمـان بـأهله مـتـقـلب لا البؤس فيـه ولا النعيم يـدوم[6]

ورغم ظروفه الصعبة فقد كان الجزار من ذوي المواهب المزدوجة متمسكناً من ناحيتي الشعر والنثر، ثقافته رصينة ومتينة، وبلغ في ذلك شأواً بعيداً لا يقل عن أدباء عصره كابن دراج القسطليّ وابن شُهيْد وابن زيدون وابن خفاجة وغيرهم.

موضوعات شعره:

عالج الجزار السرقسطي أكثر موضوعات الشعر العربي إن لم يكن جميعها، ويتجلى لنا ذلك من خلال ما وصل إلينا من أشعاره، ولكن حظ تلك الموضوعات جاء بقدر متفاوت. وقد قسمها المحقق إلى الأبواب الآتية:

1 ـ باب الهجاء والعتاب، وقد التقت نزعته الهجائية بشاعرين من عصر الطوائف هما: السميسر وابن صارة الشنتريني. ووصف ابن بسام شعره الهجائي

(5) انظر القصيدة في الديوان، ص: 157/156.
(6) انظر القصيدة في الديوان، ص: 183/182.

فقال: «ورأيت له عدة مقطوعات في الهجاء تربي على حصى الدهناء»[7].

ولعل السبب في هذه النزعة عند الشاعر هو الخصومة التي نشأت بينه وبين البرجي، وقد اقتصرت أشعاره في الهجاء عليه دون أن تتجاوزه إلى غيره، إضافة إلى صفاته الشخصية وظروف عيشه وتمرد الأيام عليه، وهي عوامل جعلته ينساق في هذا المساق ويذهب هذا المذهب حتى اجتمع له حوالي نصف قصائد الديوان في هذا الموضوع، فجاءت في إحدى وثلاثين مقطوعة وقصيدة، منها بائيته التي تقع في تسعة وثمانين بيتاً، مطلعها[8]:

تـريك مضـاء المرهفـات المضارب ... وتكشف أسـرار الأنـام التـجـارب
بفكـر الفتى، يبدو لـه كل غـامض ... وتـدنو من العقـل الأمـور العـوازب
ومن جـرَّب الأشيـاء يـزدد بصيـرة ... وتـظهـر إليـه كـل يـوم غـرائب
وكن بمـرآة الفكـر للعقـل نـاظـراً ... يبن لـك أن النـاس طـراً ثعـالب
يعد شريف القوم ذو المال لا الذي ... قد أكدى وإن كـانت عُلاً ومنـاسب

ويختمها بالأبيات التالية:

إذا قـادك الإعجاب بـالقول بـالهوى ... فـلا تتعـرض من عليـه يُحـارب
بلى هـو توبيخ على ذنبـك الـذي ... يقـوم به عـذري فهـل أنت تـائب؟

2 ـ المديح: وهو خافت الضوء في ديوانه، ضعيف خلافاً لما كان شائعاً في عصره، حيث كان المديح يحظى بمنزلة سامية، ومكانة رفيعة، وكل ما اشتمل عليه الديوان هو ثلاث قصائد فقط، أولاها تلك التي تتصدر الديوان، وحسب ابن مطروح جامع الديوان أنها كتبت في مدح الأمير زهير العامري صاحب المرية بمناسبة زواجه، وهي تأخذ طابع قصائد التهنئة والمناسبات، وتقع في واحد وستين بيتاً مطلعها:

اليـوم حلي عـاطـل العليـاء ... اليـوم جر الـدهـر ذيـل بهـاء

(7) الذخيرة، ابن بسام، الجزء الثاني، ص. 835. نقلاً عن مقدمة الديوان، ص: 29 [دراسة المحقق عن الشاعر].
(8) انظر القصيدة في الديوان، ص: 88 إلى 97.

اليـوم تـوجت العـلا وتبـرجت عنـد المـنى في حُـلة السـراء
أوفـى الـزمـان بعهـده لـزفـافه خيـر النسـاء لسيـد الخـلفـاء

إلى أن يقول:

أنت الـذي أنعشتني بمكـارم جلت فـواضلها عن الإحصـاء
وكسوتني حلل المسرة عنـدما كشفتني الـدنيا فكنت غـطائي
فلأكسونك من بدائـع منطقي حللاً مـطرزة بتبـر ثنـاء[9]

ويتضمن الديوان كذلك قصيدة طويلة يمدح فيها الشاعر ذا الوزارتين [أبا الأصبع ابن الإمام] مطلعها:

ألـم خيـال مـيـة عـن لـمـام بنـار منـى فحـيـا بـالسـلام
وذكـر بـجـانـب ذي طـلوحٍ زمـان الـوصـل في تلك الخيـام
وأيـامـاً لـنـا بِـلوى أريـك نعمنـا في مـراسمهـا الـوسـام

* * *

وكم لـك من يـد بيضـاء فينـا بهـا طـوقتنـا طـوق الحمـام
أفضت على الجميـع بهـا سمـاء فـأضحـوا رق أنعمـك العـظام
حميت حمى الجـزيـرة إذ أبيحت قـواعـدهـا وقـل بهـا المحـامي
وخـضت لـنصـر ديـن الله فيـهـا بحاراً موجهـا طامي الجمـام[10]

3 ـ الشعر الاجتماعي: احتل هذا الجانب مكانة واضحة من أشعاره، وذلك بحكم صلته القوية بمجتمعه الأندلسي، ومهنته التي مارسها وهي الجزارة التي يتفنن في عرض محاسنها بأسلوب ساخر، فيصف في قصيدة مهنته أجل وصف في معرض المباهاة، فيجعل جميع ذوي المهن عالة عليه وتبعاً له فيشير إلى أكثر مهن عصره في قصيدة من تسعة أبيات، يقول فيها:

فـمنـهـم الكـرّاش والـسـلّاخ إلـيـهـم السـبّـار والـطبـاخ

(9) انظر القصيدة في الديوان، ص: 81 إلى 87.
(10) انظر القصيدة في الديوان، ص: 186 إلى 190.

والصنع المألوف والجلاد ... ودابغ الجلود والحداد
إليهم الروّاس والبلاجي ... ثم الفتى المدعو بالسرّاج
ومنهم الفرّان والزقاق ... يليهم الرَّقاق والموّاق
وبائع الأخفاف والخفاف ... وبعده الكبَّار والدفّاف
ومنهم الفران والخراز ... إليهم الغربال والشكاز
وصانع الأوتار للعيدان ... بين مثالث إلى مثاني
وصانع المصحف والسقاء ... ثم بغايا القفة الغراء
ثم الكلاب الكثر والذباب ... لا مَين في قولي ولا ارتياب[11]

ومن صور المجتمع التي وقف عندها الشاعر صورة شكوى الناس من العمال واتهامهم بالظلم مع سوء أعمالهم، ورده على أبي عامر بن غرسية الذي نظم رسالة شعرية فضل فيها العجم على العرب، كما أنه لم يغفل في شعره هذا جانب الآداب والأخلاق الإسلامية.

4 ـ موضوعات أخرى: وقف الدكتور منجد محقق الديوان وقفة قصيرة عند هذه الموضوعات، والتي كان الشاعر مثلاً فيها كشعر الخمر والمجون مقرونين بوصف الطبيعة، وشعر المجاوبات وله فيه وقفتان اثنتان: الأولى مع الوزير أبي الفضل بن حسداي الكاتب الشاعر والثانية ما ورد من أنه وعد شاعراً بشيء ومطله، فكتب إليه الشاعر يعاتبه، ثم وصْف الطبيعة الذي جاء مبثوثاً في موضوعات أخرى وهو لا يخرج في ذلك عن منهج شعراء الطبيعة في الأندلس.

السّماتُ الفنيَّة في شعره:

أبو بكر الجزار شاعر متفنن بارع موهوب، تنوعت مواضيع شعره، أغفل ذكره البعض كابن بسام في ذخيرته بحيث جعله في جملة الشعراء المقلين، وأعجب به الآخرون كابن الخطيب الذي قال عنه: «أفصح عن السحر في مقاله واجتلى كالسيف غبَّ صقاله، ولَّد واخترع، وفي كلتا الحالتين برع»[12].

(11) انظر القصيدة في الديوان، ص: 114 إلى 115.
(12) جيش التوشيح، ابن الخطيب، ص: 147.

أما ابن مطروح فقد باهي به وبشعره الزمان حتى قال فيه: «وضمني وإياه الوطن وجمع، ورأيت أشعاره تُتَمَنَّى أن تروى كل حين وتُسمع، قمت بذكره في الأنام مباهياً ومفتخراً، وأصبحت لشعره مجتنياً من الأيام ومدخراً»[13].

شاعر أنشد الشعر أربعين عاماً دون أن يتفرغ له أو يتكسّب به، خصوصيته متميزة في هذا الميدان، فقد زاوج في أكثر من قصيدة بين وصف الطبيعة وموضوعات أخرى كالشوق والحنين والغزل والخمرة. لغته سليمة سلسة وأسلوبه يميل إلى اليسر والسهولة، متعمق الثقافة متمكن منها، كثير الاقتباس من كلام العرب وأشعارهم، دقيق التصوير كثير التشبيهات.

أما أوزانه وموسيقاه فقد لاحظ المحقق أنه مال في قصائده إلى الأوزان الطويلة الهادئة بحيث جاءت أربع وخمسون قصيدة عليها أي بنسبة 84٪ من مجموع شعره، أما الأوزان القصيرة المضطربة فقد جاءت فيها عشر قصائد فقط بنسبة 16٪ وقد استطاع الجزار السرقسطي أن يحقق تنوعاً في بحوره التي استخدمها.

كما نظم في الموشحات وقد ألحقها المحقق بآخر الديوان، ويعتبر من أبرز شعراء عصر المرابطين في هذا المجال[14].

وختاماً فقد بذل الدكتور منجد مصطفى بهجت مجهوداً كبيراً في تحقيق الديوان وضبط أشعاره مع دراسة مفيدة عن الشاعر الجزار السرقسطي والأغراض الشعرية التي جمعت في الديوان. وبهذا يكون قد أضاف صفحة جديدة إلى سجل الأدب الأندلسي.

---

(13) مقدمة الديوان، ابن مطروح السرقسطي، ص: 77 و78.

(14) انظر الدراسة التي خصصها المحقق للديوان، ص: 67.